مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 8 العدد 1 / جوان 2022
ص ص 215-227

الاعتراف في سيرة حسين البرغوثي "ساكون بين اللوز"

Recognition in the biography of Hussein Barghouthi " Among the Almond Trees"

زبير بن سخري
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف-ميلة
z.benssokhri@centre-univ-mila.dz

الاستلام:2022/02/21 القبول: 2022/05/13 النشر:2022/06/30

ملخص:

شكل الاعتراف تيمة مهمة في الدرس الفلسفي المعاصر وامتد أثره للنصوص الأدبية لما لها من قدرة على كشف تجلياته في مختلف المستويات: بناء الشخصيات، الذات الجمعية، والمقاومة والصراع على مستوى اللغة والفضاء، وقد كانت سيرة حسين البرغوثي "سأكون بين اللوز" من أهم النصوص التي طرحت ذاكرة العائلة وعلاقتها بالمكان، كيف تتسامح الأساطير وتتبادل الاعتراف على اختلاف ثقافتها في تشكيل الهوية، وكيف تتصارع الأيقونات على مستوى اللغة والذات والمكان، ناهيك عن الواقع اليومي الذي يحضر فيه الإسرائيلي بلغته وسلاحه وأيقوناته وذكرياته؛ حيث تخلق ثنائية الفلسطيني/الإسرائيلي فضاء حقيقا لمعاجة تيمة الاعتراف.

الكلمات المفتاحية: الاعتراف، السيرة الأدبية، حسين البرغوثي، الذاكرة، المقاومة.

Abstract:

Recognition has constituted an important theme in contemporary philosophical studies, and whose influence extended to literary texts because of the ability of the latter in revealing its manifestations at various levels. Building personalities, collective self, resistance, and conflict at the level of language and space. Hussein Barghouthi's biography "Among the Almond Trees" was one of the most important texts that presented the memory and family, their relationship to place, how myths tolerate and exchange recognition in spite of their different cultures in the same collective human being, and how icons struggle at the level of language, self, and place, not to mention the daily reality in which the Israeli attends with his language, weapons, icons, and memories; where the Palestinian/Israeli dichotomy creates a real space for dealing with the theme of recognition.

Keywords: Recognition- Literary Biography- Hussein Barghouti- Memory- Resistance.

مقدمة:

كان مدخل تيمة الاعتراف "Recognition" في النقد العربي عبر النصوص الفلسفية وترجماتها؛ كما تقاطعت تيمات الفلسفة وموضوعات الأدب واستفادت منها استفادة معتبرة؛ في توسعة المفاهيم وتجاوز النصوص المجردة، ولكن تطبيقاها ارتهنت كثيرا بالنصوص الفلسفية وتجريداتها؛ تنظيرا وانتقالا من جنس أدبي إلى آخر دون خدش نغم السرد أو الإبقاء على فارق النوع النصي. وبقدر ما اتسعت النصوص الأدبية لهذه التيمة مع الذات وبناء الشخصيات السردية؛ بقدر ما تقاطعت مع قراءات أدبية وفلسفية مشابهة في الابستمولوجيا والتلقي؛ يستدعي التفرقة أولا وآخرا.

1- ما هو الاعتراف:

كثيرا ما شكل الأدب العربي الحديث والمعاصر انعكاسا للأدب الغربي شكلا ومضمونا، فنجد بعض التيمات كالوجودية والسريالية والاعتراف التي لا وجود نصي ولا وجود في واقعنا؛ ولكنها تستهدف وجود واقعيا أو تأويليا، من ثم كان لزاما أن نفرق بين الوجودية والاعتراف حتى لا نقع في خطأ التشابه والاجترار.

قد يتقاطعان ويتداخلان كثيرا، إلا أن ظروف نشأتهما مختلفة كليا، فالوجودية أزمة ذات جمعية متعينة في ذوات نوعية كعنوان بعد صحوة العقل الغربي أو تيهه بموت الإله وميلاد الإنسان الحداثي، أما الاعتراف فهو ميلاد الذات العين داخل الذات الجمعي الذي عُنون بالكبير وهمش وترك الصغير، فذات الاعتراف تحتاج نفسها فقط كنوع من الإقرار وتأكيد الوجود والإدانة المشوبة للذات بذاتها قبل اكتشاف حدية ومعنى الآخر في عالم ما بعد حداثي.

ابتداءً من تسعينيات القرن الماضي (1990م) بدأت تظهر بعض النظريات الأكاديمية المهتمة بالحركات الاجتماعية وتفسيرها، وبالصراعات الإثنية والأقليات الدينية والشواذ والمستضعفين، لا أحد من هذه الفئات قاوم من أجل الحصول على حقوقه أو إعادة توزيع السلطة، ولكن صراعهم كان من أجل تأكيد هويتهم تحت مسمى "سياسات الاختلاف" "politics of difference" أو " سياسات الهوية" "identity politics" (Iser، 2019)

أورد أندري لالاند في موسوعته الفلسفية عديد الأوجه التي تتحكم في هذا المفهوم، وقد أورد المصطلحين الإثنين " Recognition "و"Reconaissance " وتتبع معناه الفلسفي والنفسي، واقترح المعنى الذي كان نقطة التحول في المفهوم الفلسفي " يجري التفريق في الذاكرة بين معاودة إنتاج الذاكرة والاعتراف بها وتحديد موضعها. الاعتراف بحقيقة، بحق، بواجب" وهذا هو جوهر الاعتراف عموما الذي انطلقت منه النظرية الفلسفية في الفضاء العام؛ لأنه يتجاوز الاختصاص الواحد إلى الاختصاصات البينية" interdisciplinarity " (لالاند، 2001، صفحة 1180)

اختلفت آراء الفلاسفة الغربيين بعد نضج النظرية وخاصة مع مدرسة فرانكفورت النقدية حول تيمة الاعتراف؛ لاختلاف الفلسفات والمرجعيات " على أن ما يجب أن يكون من على بال هو أن مختلف فلاسفة الاعتراف قد عملوا على نوع من التأسيس

الفلسفي للاعتراف، وذلك أن الاعتراف يشكل المفهوم المركزي لمختلف نظرياتهم...من هنا نجده عند تايلور في صورة سياسة الاعتراف، وعند نانسي فريزر في صورة نظرية في العدالة وعند أكسل هونث في صورة فلسفة اجتماعية " (بغورة، 2012، صفحة 42)، فهذا التشظي وهذا التوزع النظري في التمظهر والتأسيس حاول بول ريكور جمعه تحت مسمى النظرية الواحدة، حيث جمعه في معان خمسة؛ 1 التعرف على الشيء في الذهن وهو من المعرفة،2 قبول الشيء بوصفه حقيقيا،3 الإعلان الصريح والإقرار،4 الاعتراف هو الامتنان والمكافأة،5 النضال والصراع من أجل الاعتراف (بغورة، 2012، صفحة 25).

فهذه جملة المعاني التي تناقش في فلسفة الاعتراف، حيث تشمل علاقة الأنا بذاتها وعلاقة الأنا بآخرها في مختلف أشكال الوجود والتعبير؛ من الضيافة إلى مخيمات اللاجئيين إلى الذاكرة وكتابة التاريخ وتدريسه، لكن بول ريكور لا يقف عند هذا الحد بل يقع في تناقض الثنائيات أو التقييم المبتذل الذي نسف كل بعد إنساني لهذه الفلسفة "فإن الفرضية التي اعتمدها ريكور هي الفرضية القائلة إن الاشتقاقات الدلالية على مستوى المفهوم تجد سندها في فعل الاعتراف بمعناه الإيجابي / الفعلي: التعرف على الشيء أو الموضوع أو على الشخص أو على الذات أو على الآخر، وبمعناه السلبي المنفعل: أن تكون معترفا، وطالبا للاعتراف" (بغورة، 2012، صفحة 25)، فهذا النعت بالسلبية يجعلنا نعالج الاعتراف في مفهوم أكثر عدالة بين الذات والآخر؛ خاصة ونحن أمام نص فلسطيني يقاوم في كل المستويات، من المفهوم إلى الوجود إلى الأيقونات إلى المؤسسات الدولية "فإن ما يشكل مدار اهتمام هذه الفلسفة [في جوهرها] وتميزها عن غيرها من المجالات الإنسانية هو اهتمامها بالصراعات الاجتماعية وبخاصة صراع الفئات المهمشة والمقصية والمستعبدة، ومختلف الجماعات التي تعتبر قاصرة وتابعة وتبحث عن حياة اجتماعية كريمة" (بغورة، 2012، صفحة 10)، كما أن زاوية النظر أحيانا فردية؛ نوع من التحاور الفردي مع النفس في غياب واقعي للآخر الذي يرفض أن يسمعك لأنه ببساطة الأقوى، فلغة الحوار –الحقيقية- تتجاوز اللغة إلى وسائل أخرى، لم يحققه الطرف الأضعف بعد.

ربما تعد الذاكرة هي الوسيلة المتبقية لتجلي فعل الاعتراف وجدليته عبر لازمان والمكان في نصوص الشعر والأدب؛ ورغما الصورة النمطية للذاكرة وربطها بالخيال في تاريخ الفلسفة إلا أن الاعتراف أعاد لها الاعتراف من منطلق الإنساني المنحض والأقوى إطلاقا من أي تنميط أو تنظير،"حين خضعت فينومينولوجيا الذاكرة لأولية السؤال "ماذا؟" وجدت نفسها منذ البداية وقد اجهت استعصاء تحتضنه اللغة العادية: إن الحضور الذي يشكل قوام تمثيل الماضي يبدو أنه حضور صورة. فنحن نقول بلا تمييز بأننا نتمثّل حدثا ماضيا أو نتصوره، أي عندنا صورة وهذه الصورة يمكن أن تكون شبه بصرية أو سمعية. وهناك، أبعد من اللغة العادية، تقليد فلسفي يتصل بصورة مذهلة بتأثير التجريبية الآتية من اللغة الانجليزية، وبالعقلانية الكبرى، المستمدة من الديكارتية، وهو يجعل من الذاكرة مقاطعة

تابعة للخيال الذي كان قد عومل ومن زمان بعيد بكثير من الشبهة"، (ريكور، 2009، صفحة 33)، فالخيال قوة الإنسان التي مكنته في الكثير من المحطات التاريخية من المقاومة والاستمرار؛ رغم تهميشه من قبل المنطق والعقل.

2- ذاكرة العائلة والمكان:

يعد فعل الشطب من المفاهيم التفكيكية للفيلسوف الفرنسي جاك دريدا "Rupture" الذي غيّرت مفهوم الكتابة وجعلت المعنى بين الحضور والانطفاء؛ هو حاضر وغائب في نفس الزمان والمكان، كذلك هي ذاكرة المكان في سيرة " سأكون بين اللوز" موجودة ولكنها ستغادر مع صاحبها، فذاكرة المكان تشترط الذات الكاتبة وإلا فروح المكان مثقلة بالذوات والتاريخ "أكد [موريس] هلبفكس في "الذاكرة الجماعية" أن التاريخ لا يبدأ بالفعل سوى في اللحظة التي تمحى فيها الذاكرة، تاركا المكان للخطاب التاريخي في الوقت اللذي تنتفي فيه الذاكرة" (دوس، 2014)، فالذات الكاتبة بمثابة شاهد حي ينظم عملية التذكر وتشبعها بالمكان، وهذا لا ينفي الاتساع بقدر ما يفرض الصراع على ذاكرة المكان والنص قبل أن يحسم المؤرخون رؤية التاريخ؛ لأن الأثر تيه عن المرجع "وإن كان الاعتراف يطرح مسألة العدل الرمزي أو الاعتباري، فإنه لا يطرح هذه المسألة بشكل عام ونظري، وإنما يتناولها في جزئياتها ومن خلال تجارب يومية ومحلية للأفراد والجماعات الإنسانية المعنية، وهو ما يعني الرغبة في ربط البعد الأخلاقي للإنسان بتجاربه اليومية" (بغورة، 2012، صفحة 16) والتاريخية؛ فصاحب السيرة حسين البرغوثي الذي تنزف حياته لحظاتها الأخيرة؛ مع شهادة سرطان الجسد وسرطان المكان الذي يقحم أيقوناته في الحاضر والماضي والمستقبل، " كانت أمي يتيمة، وتبناها عم لها يدعى "قدورة"...خطرت ببالي "ذاكرة المكان" هذه، وأنا واقف فوق الخرائب غربا، في قمة جبل مغطى بغابات صنوبر وسرو وبلوط" (حسين، 2017، صفحة 12).

قبل الوقوف على أيقونات المكان وفضاءه وقف حسين البرغوثي أمام ذاته لأن المكان نسيج الذات؛ سؤال الهوية والوجود وما المعنى، دون العودة للمكان الأول الذي يتسلط بقوة على كل المسرودات والسرديات في شكلنته وفي فعله " كنت أخطط للعودة من زمن، فزرت جبال طفولتي ليلا، كان القمر كاملا، والصمت شاملا، بين خرائب دير قديم ومهدم، في قمة جبل بعيد عن القرية وقفت هناك أتأمل البدايات والنهايات" (حسين، 2017، صفحة 10)، فالوقوف عند الذات هو خدش للذاكرة التي تنسلخ مكانا وزمانا وقصصا وخرافات وأشياء في نسيج لغوي عجيب يعلو على كل أجناسية أدبية جسدتها سيرة " سأكون بين اللوز"، كثيرا ما استقصى الأدب الحقيقة في شكلها المجرد والخام متناسيا أو مسقطا فكرة الذاكرة؛ لأن تقاليد السرد في الرواية أو أي جنس أدبي قد لاتستسيغ ما هو إنساني إن انتقص أدبيا أو جماليا ولكنه في الأخير شكل إنساني " الأمر يتعلق هنا بالعودة إلى نقص في الإشكالية في كتابي " الزمن والسرد " وكتابي " الذات عينها كآخر" حيث تتواجد مباشرة التجربة الزمنية والعملية السردية وذلك على حساب إهمال الذاكرة، بل وأسوأ من ذلك، على

حساب إهمال للنسيان، حيث أنهما يشكلان مستويين متوسطين بين الزمان والسرد" (ريكور، 2009، صفحة 27)، يقر بول ريكو بإسقاط الذاكرة والنسيان من نظرية السرد والتاريخ واحتكامهما لمنطق العقل والمنطق على حساب الخيال.

هذا التخلخل الجناسي على مستوى السيرة هو نتاج طبيعي لسرطنة الذاكرة واقتحامها في فعل عنيف وصدامي يستدعي رجة تسري في الأشياء، يمكن أن تتجاوز باثولوجيا الذاكرة " خطرت ببالي "ذاكرة المكان" هذه، وأنا واقف فوق الخرائب غربا في قمة جبل مغطى بغابات صنوبر وسرو وبلوط" (حسين، 2017، صفحة 12)، لماذا تسيل الذاكرة ملفوظات متراكمة عبر أجيال؛ للتخلص من عبء إنساني، لأزمة معنى، شكل لمقاومة الآخر والموت؟ إن تيمة الاعتراف تؤنسن في الأدب الأماكن الصغيرة والخرائب بالتاريخ النفسي وتاريخ العائلة كنوع من المقاومة في الوجود والتشبث بالحياة ما إن يهدد وجودنا في المكان، حتى أن الكثير من الصراعات الدولية تحتكم لفكرة الأثر الأقدم والأعتق ولو كلمة بلغتك في خرافة، ناهيك عن قوة الأدلة المادية.

فالتاريخ الرسمي كثيرا ما يهمل البعد الإنساني في حوادثه ويركز على علاقات القوة والحضارة ومركزية الأنا الجمعي، ناهيك عن تسامح الاعتراف مع تاريخ الأفراد والعائلات؛ لأنه ضمن ميتافيزيقا اللاإجابة وتسقط كل قيم الانتماء التي نعيش بها، قد تكون ابن ملك وأمك جارية، وقد تكون ابن لص وأنت كاهن داعية وقد وقد " كانت أمي يتيمة، وعاشت زمنا ترقص وتغني في مواسم فلاحيّ المنطقة. وتبناها عم لها يدعى " قدورة" شيخ عملاق وصلب، كان يسكن مع أخيه، على ما أعتقد في هذا " الديّر" وكانا قاطعي طرق مسلحين أيضا. إن اختفت فرس أو بقرة إنها في " الديّر الجواني" ولم يجرؤ أحد على الذهاب إلى هناك" (حسين، 2017، صفحة 11)، فهذه الذكريات البسيطة حول الرقص واللصوصية والفتوة ما هي إلا فعل يومي متكرر في كل قرية؛ فما الغاية من اجتراره؟

إن فقدان حرية الفعل في ظل التزاحم الأيقوني على المكان هو ما يجعل الأشياء البسيطة أكثر تعبيرا عن حرية الإنسان.

ولم يتوقف حسين البرغوثي في سيرته على استرداد الذكريات كمسرودات شفوية برواية دقيقة للمتن والمعنى، بقدر ما راح يتماهى مع ذكريات العائلة ويتجاوز زمنه إلى زمنهم كفعل لمدى تجذر كينونة الهوية في الإنسان والمكان، صراع بين الانسان والمكان، لا وجود للمكان دون ذاكرة للإنسان " أدمنت العودة نحو الدير الجواني، وكأنني مأخوذ بالوقوف في مهب ذكريات أهلي القدماء هناك، وأحاول تركيب " بداياتي" من " نهايتهم". مثلا كنت أتخيله عمها " قدورة" هذا، واقفا فوق سطح الدير، مشرفا على أودية عميقة ومقمرة، وعلى جنائن متدرجة، محروثة ومزروعة، وهو يعزف على ربابته" (حسين، 2017، صفحة 13)، هذا الاسترداد هو استحواذ على المكان في التاريخ؛ فأنا حسين هي أنا قدورة هي أنا الفلسطيني الذي أصبح مهددا بازدواجية ذاكرة المكان من تاريخ العائلة إلى الأساطير والخرافات والرموز،" بيد أن هذا التعتيم(Opacification) في علاقتنا بالمستقبل قام بتعديل روابطنا

بالماضي، سبب في صعود ذاكري متعدد ومكثف بوصفه مقتضيات في الهوية" (دوس، 2014، صفحة 66)، فسؤال الهوية في مختلف المستويات يريد البحث عن مركز متخف في ماضيه؛ لايدريه أين؟ في رائحة طعامه، في شعره وغنائه، في حروبه، في ترحيله وفشله" يصبح الحدث إثر ذلك جزء لا يتجزأ من التشكيل السردي المؤسس للهوية الإنشائية (سقوط الباستيل) أو السلبية(أوشفيتز). الحدث العائد ليس نفسه الحدث الذي اختزله المعنى التفسيري، ولا الحدث الدلالي التحتي الواقع خارج الخطاب، إنه الحدث الذي يولد بذاته المعنى" (دوس، 2014، صفحة 74) "، فكل حدث خارج اللغة وخارج تفاعل الحواس الفردية والجمعية معه على عظمته وخارج نسيج السرد مصيره النسيان أو التاريخ؛ أما الذاكرة فمشروطيتها أعقد من كل هذا بكثير.

فكم من جريمة انتقام حدثت بعد قرن أو أكثر سواء على مستوى الأفراد أو الدول، والتاريخ غفل عنها، وكم من حقيقة نرفضها منطقا وعقلا ولكن أبسط الناس يصنفونها سبب الأسباب، "حلفت لي أمي بأنهم كانوا يسمعونه من القرى المجاورة والبعيدة. أتخيله وقد علق فوق كل جدار من جدران الدير الأربعة بندقية، وصعد الدرج الحجري الضيق، وفرد عباءته تحته وبدأ بالعزف، لا أحب الربابة بل الناي، وأحاول أن أتخيله، قاطع الطرق هذا، وهو يعزف الناي!" (حسين، 2017، الصفحات 13-14)، فأم حسين شاهد عيان على هوية تتمدد في المكان وتهيمن عليه قوة وعزفا على الحياة، وتسقط كل قيمة سلبية لهذه التوصيف بـ " قاطع طريق" لأن الحضور الإسرائيلي خلق في مستويات الذات العميقة أزمة هوية وخلخل استقرارها؛ إن الأنا تحاجج ذاتها في مداها وتاريخها، وهذا ما يطرحه الفيلسوف الألماني أكسل هونث أن منطلق الصراع الاجتماعي هو البحث عن الاعتراف، فاحتمال تشكل الهوية يعتمد جوهريا على تطوير الثقة بالنفس واحترامها ومدى تقييمها وتقديرها. هذه الأسس الثلاث تكتسب وتتجاوز الذات من خلال اعتراف الآخرين. فتحقق الذات يتوقف على تجسيد علاقات اعتراف متبادل. (Honneth, 1996, p. 11)، وكم هي هشة ومعقدة علاقات الاعتراف، هل من الممكن أن يشكك أحد في وجودك وفي أحقيتك بالمكان؟

نعم يمكن أن يفعل ذلك لو عرف عمل الذاكرة وعلاقاتها النصية وكيفية إقحام أيقونات جديدة وطبعنتها في ثقافة جيل جديد، فالفلسطيني اليوم هو الذي أصبح يبحث عن الاعتراف من الآخر خارج ذاكرته؛ لأن الذاكرة فصلت عن وأبعدت عنوة عن المؤسسة ومن ثم المكان، هل يمكن للقوة أن تحل محل الاعتراف المتبادل، وتقاسم ذاكرة المكان في المؤسسة الواحدة؟ لم يحدث ولن يحدث على الأقل في الأجل القريب، علاقات الأيقونات تقوم على النسف والبعد الواحد فقط.

فالغرض من استرداد ذاكرة المكان هو عمل لتأكيد الهوية وتجذيرها في المكان من جهة ولإثبات الوجود من جهة ثانية، لأن أغلب صراعات الهوية تشمل حدود المكان وتعالقاته والرموز في الفعل الثقافي، ناهيك عن بعض الذاكرة التي تتجاوز التاريخ وتتحول إلى طقس مقدس متكرر في كل جيل؛ وربما يكون هو

أحسن تجسيد للذاكرة كالاحتفالات ببعض الأعياد الدينية في الثقافات المختلفة.

ويمضي حسين البرغوثي في تقصي تاريخ عائلته اليومي وقبيلته كنوع من الفتوح والانتشار المتشابك في المكان " من حيث يعزف، فوقه سطح الدير، كان تقريبا يستطيع أن يرى قرية "دير غسانة" أصل قبيلتنا، وأصله، من هناك، الأصل الأقرب على الأقل. مرة اختلف شيوخها معا، فتسلل جد جدي، في ليلة مقمرة كهذه، إلى بيت كانوا ينامون فيه، وذبح اثني عشر رجلا من أقاربه هناك. ثم حمل خيوله ورجاله ونساءه وأولاده، وهرب على هذه البقعة النائية التي سأولد فيها، بعد قرن ونصف على "هذه البداية" (حسين، 2017، صفحة 14)، ويسترسل في تعداد أفراد عائلته الكبيرة وسطوتهم وتاريخ نهايتهم في كثير من الصفحات، وهو يسترد ذكريات العائلة؛ يسترد قوته ويسترد إيقاعه في الحياة، وكأن مسيرته اضطربت فاحتاج لضبطها على وقع تاريخ عائلته في فضائها الطبيعي،" إن تشكيل الحدث مرهون بعملية تحبيكه، فهو الوسيط الذي يضمن تجسيد المعنى للتجربة الإنسانية للزمن في المستويات الثلاث:1- تمثيله العملي المسبق،2- تشكيله الإبستيمي، 3- إعادة تشكيله الهرمينوطيقي" (دوس، 2014، صفحة 74)، وهنا تتجلى الإيديولوجيا-رؤيا العالم- المتناسقة المتناغمة بين أفقها العقلي التنظيري وتجسيدها الفردي البسيط على مستوى السرد والحكي.

من اللحظات المهمة في مبحث الاعتراف "لحظة الولادة" التي تقابل في الغالب تحفيزا سرديا جديدا يقوم على حدث أو معنى أو إعادة تأويل فعل الذاكرة، قد تنسف كل التصورات السابقة، ويشهد ميلاد من جديد بعد الاعتراف والشهادة " قيل إن الجنين يسمع صوت الدورة الدموية في رحم أمه وكأنه هدير بحر، وبعد الولادة يغفو على صوت يشبه هذا الهدير الرحمي، أي الإيقاع الأول. كنت أشعر بهذا الايقاع في صوتها (سعوطة أحد أفراد عائلته) وذبذبة شعلة السراج تزيد الإيحاء. كانت واقفة كالأم الأولى أمنا الأرض" (حسين، 2017، صفحة 16). ثم يسترسل في تاريخ شخصية سعوطة وما تمثله للعائلة والقرية كنوع من الشهادة سيتلوها ميلاد جديد، يليه تاريخ أمه وعائلته إلى أن يشير في سرده إلى نقطة توقف خيط الذاكرة وصمت كل الشخصيات وأفراد عائلته إنها سنة 1948م؛ لحظة مهمة في تحول الاعتراف من الإيجاب إلى السلب " لم يمت قدورة كله حين لدغته الأفعى الزعراء: بقيت ربابته! ولم أزل أسمع أصداءها في الفراغ الذي يفصل " بدايتي" عن " نهايته" ليتني أقدر أن أخرج فيلما يدعى " سيرة حياة ربابة"، ورثها أبي عنه وغنى عليها حتى سنة 1948، ولم يعد يغني أي شيء في حياتي، ولا يلفظ أي لفظة قد تشير إلى أي حس عنده بالغناء. كان وكأنه قد نسي صوته تماما. وأعطى الربابة لأخ له مشهور بصمته. يتربع أمام بيته إلى الأبد، ويدير بصره في الجبال المفتوحة" (حسين، 2017، صفحة 17)، وكأنها بداية الماضي الذي يعني الصمت والمرض والحاضر الذي يعوض ذاكرة الصمت بالتخييل. ربما هي من اللحظات التي لم يدقق فيها جيدا فلاسفة الاعتراف باعتبارها تحولا ابستمولوجيا وفمينولوجيا – كنتيجة وكفعل، لأشياء تتجاوز طبيعة السرد والذاكرة وتتعداهما

إلى الاستراتيجيا والقوة والحرب-في موازين الهويات السردية المتزاحمة في المكان بأيقوناتها.

كان يستذكر المكان بأغاني أفراد عائلته في بعض المناسبات كنوع من السرديات النفسية التي تورث أداءً وطقسا وتعيد ترتيب ورسم ذكريات العائلة، وباعتبار الغناء تغييبا للمعنى وليس للتواصل لأنه يشتغل على جملة من الحواس التي تعبر الأجيال في الحفاظ على نقل الإيقاع والأداء واللحظة الفينومينولوجية.

كانت تتميز سرديات العائلة في السيرة في الانقطاع والتوقف المفاجئ عند 1948 م كلحظة صمت على مستوى أفراد العائلة أو نوع من الإنكار من طرف الآخر سواء العربي أو الإسرائيلي؛ لأن الصمت طال والإنكار تحول إلى موقف " الإنكار يتعلق بإنكار شخص أو جماعة ضمن المجال الاجتماعي المرئي، واعتباره نكرة أو غير موجود بالمرة" (بغورة، 2012، صفحة 28)؛ فالمجال الاجتماعي المرئي يشمل كل أشكال المعنى من الرقص إلى الغناء إلى السياحة إلى حرية الحركة إلى الوفاء للمكان، ولكن حملات التهجير وطرد السكان جعلت التمسك بالذكرى وفاء، وأي وفاء؟ وفاء يتجاوز التاريخ "إن المأزق المزيف حول خيار ينبغي القيام به بين قطب التاريخ القائم على على البحث عن الحقيقة وقطب الذاكرة الذي يتغذى من الوفاء" (دوس، 2014، صفحة 65)، الوفاء كقيد للانتماء والحقيقة لأن تمأسس التاريخ يسقط كل الروابط العرقية والعائلية وينتصر لما هو مادي وعقلي فقط قابل للتأويل وإعادة القراءة، أما الوفاء فهو محاولة للقبض على لحظة إنسانية غامرة جئت منها أنت دون غيرك؛ فلا يمكن التفريط فيها، ومن ثم كان غياب سرديات الطفولة إلا بعض اللفتات وكأنها فترة حالمة لا تعتد بها الذاكرة في بناء الهوية والتاريخ.

3. أسطورة المكان:

يشغل المكان مساحة الصراع الفعلي في الهويات، لأنه لا هوية دون مكان، وكثيرا ما أخذت الهويات أسماءها من الأمكنة، كما تكون فضاء لممارسة فعل الأيقونات الثقافية وحضورها، وتتزاحم فيه وحوله الأساطير المؤرخة لقدم الوجود وقدم الاستكشاف والتأسيس للمعنى والحياة، يورد حسين البرغوثي الكثير من الأساطير الإنسانية مختلفة الثقافات؛ عربية وإسلامية ومسيحية كنوع من الذاكرة التي يسميها ريكور "الإلزامية" التي تعمل على استمرارية هوية معينة في حدود مكانية مضبوطة.

يمكننا أن نصنف أساطير المكان في سيرة البرغوثي إلى:

أساطير عائلية: تخص أفراد العائلة، أساطير دينية، خرافات شعبية، وكلها تعمل كجهاز هوياتي يوائم بين الفلسطيني والمكان في علاقة طبيعية تأسست عبر الزمن والأسطرة كفعل مستمر للتملك التفسيري والقوة، من ثم فكثير من الأساطير حين تنقل من مكان إلى مكان تغير رؤيتها لتناسب سطوة المفسر على مكانه، "قيل إن في القصب سرا إلهيا، كان الله سبحانه قد أودعه في صدر النبي محمد، ولم يستطع النبي تحمله فباح به إلى علي بن أبي طالب، وأخبره أن لا يبوح به لأحد، ولم يستطع على تحمله أيضا فذهب إلى واد عميق وبعيد وباح به لقصب ذلك الوادي" (بغورة، 2012، صفحة 14)، أورد

هذه الأسطورة في معرض تاريخ عائلته وتمسك أفرادها بموسيقى الناي الذي لا يختلف تعبيرا عن كلامهم، بل هو أعمق في تاريخ صمتهم؛ صوت الإنسان الذي لا يتوقف " وحزن الناي كما يقول مولانا جلال الدين الرومي، حنين الخشب أو القصب الذي صنع منه إلى غاباته الأولى التي قطع منها، إلى " أصله" أو " واديه الأول" (حسين، 2017، صفحة 14)، فإلى أي أصل كان يحن "قدورة " هذا؟ وإلى أية بدايات؟ إن الأسطورة تمسكٌ بالمكان ومثل الناي الذي ظل يبحث ويسأل عن واديه يضل الفلسطيني كذلك في أغانيه يمجد الوطن الأول.

ولا ينسى صاحب السيرة ذكر أساطير الطفولة وخرافاتها التي ترتبط وتلتصق بالمكان أيما التصاق، فنجدها تتقاطع معه سردا ويحتضنها المكان فعلا وخيالا كنوع من الحنين الإنساني وبداية تشكيل جغرافيا تخييلية لتأثيث العالم،" كانت أمي تقول بأن الغولة تقعد على مفرق طريق بثلاث شعب وتضيء" سراج الغولة" ... كي تغري به التائهين، وتطحن ملحا، وأثداؤها مردودة إلى الخلف على كتفها، الغولة تموت إن ضربتها بالسيف ضربة واحدة، ولكن، إن " ثنّيت" عادت إلى الحياة، ولذا إن قالت لك " ثنّ" قل لها: "أمي ما علمتنيش". هذه كانت وصية أمي لأميرها الصغير، الذي لم يكن يملك بعد، إلا سيف خشب" (حسين، 2017، صفحة 22) حتى أسطورة الوحوش مؤنسنة في مكانها وهي جزء منه، لها امتدادها الطبيعي أكثر من أي مستعمرة غاشمة.

ثم يمضي ليحي كل الأمكنة تقريبا بأساطير إحيائية، فكأن الطبيعة امتداد للإنسان، وليس هذا أثرا للمرض بقدر ماهي رؤية الإنسان العادي للمكان من حوله "قبل أن يولد هو – قال -كانت هناك امرأة جميلة جدا قتلها أهلها وكانت مظلومة، فتحولت إلى حورية تسكن الينابيع البرية. وسكنت هذا العين فسميت " عين القتيلة" (حسين، 2017، صفحة 25)، ثم يسمح لخياله أن يوسع نسيج الأسطورة إلى ما حوله " وتخيلت الشق الذي تنبع منه العين في الصخرة عين حورية تبكي فيتجمع دمعها في بركة كبيرة ثم يتفرع في قنوات تروي البساتين من حولنا" (حسين، 2017، صفحة 25) الأسطورة حياة المكان، وليس هو فضاء مفرغ تصب فيه الأساطير بل تنبع منه وتنمو وتزهر وينتشر أريجها عبر المكان والسرد والزمان، يكتبها جيل ويكتب نهايتها اللانهائية جيل من بعده؛ لأنها متعلق المكان والهوية؛ وهي ميراثهما.

الأساطير تورث كالأرض والناي" وتذكرت حكاية أبي عن تاجر كان يبيع الخوخ والمشمش على ظهر حماره... فأخذ الضبع يتحرش بحماره...الضبع أسطورة الجبل. قيل بأنه يخطف عقل الرجل التائه المنفرد، فيلحق به وهو يهتف: "يابا! يابا". وكأن هناك لحظة يتحول فيها الأب إلى ضبع، والضبع إلى أب، لحظة كل ما تمسه يدعى " مضبوعا" ويركض المضبوع خلف "أبيه" فلا يستيقظ من حالته إلا عند باب مغارة الضبع، عندما يصطدم جبينه بأعلى المغارة، فيسيل دمه على جبينه...وبعد قليل سيقولون أكله الضبع" (حسين، 2017، الصفحات 25-26) يتوارد الغول ومن ثم الضبع في القصص والحكايا للمكان دون غرابة أو عداء، هي أسطورة تملك الإنسان لمكانه بما فيه.

كانت أساطير المكان ملاذ حسين من مرضه،" مرة قالت لي أمي: إن لم تستطع كتمان سر ما، احفر حفرة في الأرض وقله لها، ثم أهل عليه التراب، ادفنه فيها. وسوف يعود إليك حين يأتي الربيع: كل نرجسة أو عشبة تبزغ من تربة تلك الحفرة سترجع السر إلى سطح الأرض، ولن يقدر على سماعه إلا أنت" (حسين، 2017، صفحة 28) على منوال الأسطورة الإغريقية ينسج الأهالي نرسيسهم المتجدد في كل ربيع يحفظ أسرارهم من كل نرجسية إفشاء الخطيئة والنقيصة، فكان المكان بأساطيرها كاملا ليكون ملاذ الإنسان الأول والأخير، الأسطرة تأثيث إنساني في تناغم عابر لكل الثقافات دون أي صراع أو عداء مادام الإنسان غايته " كان من عادات نساء قبيلتنا أيامها أن يحتفلن بـ" خميس الأموات" خميس وثني الجذور سحيق القدم من " أعياد الربيع" والبعث" (حسين، 2017، صفحة 47) فالمكان مسكون بأكثر من صوت بأكثر من خيال، فهذا الاعتراف المتبادل بين الثقافات في نسيج لغوي واحد، عبر من لغة إلى لغة بكل حمولته وأيقوناته، توحده روح المكان وتعايش الإنسان.

4. صراع ذاكرتين:

كثيرا ما كانت الصراعات حول الأمكنة وحدودها؛ ويشمل هذا الصراع بدايةً صراع الذاكرة وصراع الأيقونات، فالأول لغياب الاعتراف المتبادل وشقوق الهوية التي تبحث عن النقاء فقط، والثاني تمظهر للاعتراف بالذات وتأكيد على سطوتها في كل فضاء قابل لارتداء معناها، و قد يشمل هذا الصراع الصيغ القولية للاعتراف والعلامات ومناقشة مسألة التقنع أو القناع كنتيجة حتمية لتفوق طرف وهزيمة طرف آخر (بغورة، 2012، صفحة 36)، قد لا تظهر هذه النتيجة لأن الاعتراف بدوره يخضع لسلطة على مستوى السردية، فالسردية قد تعني الوجود في لحظة من اللحظات؛ فالكثير من الأدب الإسرائيلي لا تجد سردياته معبرا مباشر للغة العربية رغم تفوق الأيقونات الإسرائيلية الأخرى في فضاءات متعددة، وهذا يجعل سردياتها في المكان هزيلة ومهتزة في عدم قدرتها على الدخول في علاقات تحبيك متعددة اللغات أو نسج أساطير ومخيال مشترك، بل ظلت دائما كنقيض وطرف أبدي في صراع متعدد، على غير ما يعرف بـ" الإسرائيليات" في التراث العربي الإسلامي التي وجدت لها مكانا ابستمولوجيا وفينومينولوجيا في أكثر النصوص تأسيسية للتراث والقراءات الإسلامية.

فالوجود الإسرائيلي ظهر ضمن سيرة حسين البرغوثي كنشاز خارج تواءم المكان والذاكرة والسرد، ولكن حضوره على مستوى السرد هو في الأخير اعتراف بالمنافسة والصراع حول المكان وتأثيثه السردي والأسطوري. حسم حسين حضور سردية الآخر بالصراع المطلق؛ ذاكرةً وأيقونةً لأن الآخر الإسرائيلي نشاز إنساني/ طبيعي" وبدا لي بأنني أرى " ذاكرتين" معا، ذاكرة الأفاعي التي تزغرد وهي تطير [خرافة فلسطينية] وذاكرة من رؤى أساطير مسلحة تحلم بإبادة الأفاعي " (حسين، 2017، صفحة 12)، ويمضي في استحضار التاريخ والحاضر في شكل متنافر ولكنه أكثر واقعية كمرضه بالسرطان وسط انتفاضة فلسطينية، " خطرت ببالي " ذاكرة المكان " هذه وأنا واقف فوق الخرائب غربا، وفي قمة جبل مغطى بغابات صنوبر وسرو وبلوط تشع أضواء النيون من مستعمرة

إسرائيلية تدعى "حلميش عندهم" و"مستعمرة النبي صالح" عندنا" (حسين، 2017، صفحة 12) التاريخ مقابل حاضر باسم لا يعني شيئا للبرغوثي، ولا يكلف نفسه حتى عناء شرح اللفظة العبرية " أضواء باردة، وكاشفة، ومحاطة بأسلاك شائكة، وبدت المستعمرة معلقة في الفضاء، ربما بسبب الضوء أيضا، ولم تلمس الأرض، ولا التاريخ بعد" (حسين، 2017، صفحة 12)، وكأنها سقطت من السماء، محاطة بأسلاك ومضاءة بالنيون كحامية عسكرية معزولة عن التاريخ وذاكرة المكان، دون أي اعتراف أو شهادة ولكنها موجودة، فهذا النكران المتبادل وهذا اللاحترام (Disrespect)يعود خصوصا للخضوع الإنساني؛ كنتيجة للمشروطية الداخلية بين التذويت والاعتراف؛ لأن استمرارية الصورة المعيارية للذات الإنسانية تدعم من طرف الآخرين. (Honneth، 1996، صفحة 131).

يمضي حسين البرغوثي ليشرح المستوطنة من داخلها "ماذا يرى مستعمر جاء من روسيا أو استوانيا ربما قبل سنة فقط، حين يفتح الآن شباكه، ويحدق في نفس هذه الجبال التي أنا فيها؟ ... وأنا واقف فوق الخرائب تلك، شعرت بفرق شاسع بين نوعين من "الضوء": القمر والنيون في المستعمرة كان الأخير مرتبا ومهيمنا، حد البياض، منتشرا حتى وراء الأسلاك الشائكة التي تعزل كل مستوطنة عن محيطها، أشبه ما يكون بـ" رؤيا مسلحة" باحتلال بصري، ومعمار ضوئي لدولة تهذي حتى في منامها برؤى مسلحة ومضاءة بالنيون" (حسين، 2017، صفحة 12)، فهذا النكران الذي يمارسه الإسرائيلي في حق الفلسطيني؛ يمارسه المكان على الإسرائيلي ورموزه؛ فالليل يحتاج قدرا ضئيلا من النور للاهتداء والسكينة والجمال، فيما المستوطنة تحتاج نهارا أبديا لسلامتها، فالضوء إذا زاد عن حده اصطلح عليه بالتلوث الضوئي الذي يشوه نظام الطبيعة/الإنسان.

يفتح حسين سؤال الذاكرة على تيمة الاعتراف الأكثر جدلا بين الضحية وجلادها" وبين الذاكرتين ذاكرة الضحية، وجلادها، وما يشبه الوادي، أو " الهوة" صدع عميق ما، وأنا واقف شفير هذا الصدع اللامرئي" (حسين، 2017، صفحة 13)، جدلية الجلاد والضحية ملمح مهم في التاريخ المعاصر في الكثير من الدول والثقافات ويشمل كتابة التاريخ والأدب، السينما، وكثيرا ما يوصف صراع الذاكرة بين الجلاد والضحية بالمصادرة وإسكات الآخر إيديولوجيا، وتهميشه؛ بل يساوم حتى في تاريخه، " صادر الإسرائيليون طفولتي (ذكرياتي) على أية حال : الجبال المحيطة بعين قتيلية. وفوق الجبل الذي كنت أسبح في بركته وعلي الراعي يقف تحت خروبته، بنوا مستعمرة مضاءة بمصابيح صفراء، وكاشفة، ومحاطة بأسلاك شائكة ..." والبساتين؟" أصبح المستعمرون ينزلون إليها من رأس الجبل ويطلقون النار علينا، وشقوا طريقا ترابيا من المستعمرة إلى الواد. هربنا، ولم نعد. والبساتين أصبحت ولائم للخراب" (حسين، 2017، صفحة 27)، مصادرة المكان تعني سردية جديدة واجترار السرديات قديمة مجالها التوقف عن الرواية، ومن هنا تنطلق سردية المقاومة في الدفاع عن حق الذاكرة وتطوير الخطاب

ليشمل الإيديولوجيا وأيقونات الصراع المتغيرة باستمرار.

يؤرخ حسين البرغوثي في سيرته أن الأيقونات تستبدل وتقحم لحظة الولادة في كل جيل " فوق الحرش كانت تدوي طائرات هليوكوبتر إسرائيلية، منذ أول يوم له على سطح "الكرة الأرضية " وصار يسمع الدوي ويتابع الصوت، ليلا، بحركة رأسه تحت إضاءة شمعة خفيفة وكأنه يتابع "قدورة" أو كأنه زهرة عبّاد شمس تتابع يوم القيامة" (حسين، 2017، صفحة 34)، فالطائرة أضحت أيقونة جديدة في فضاء السرد والمكان كمقابل لجده قدورة في تشكيل هوية هذا المولود الصغير بين أيقونتين غائبة حاضرة، أنا/هو " وأول لفظة لفظها، حين تكلم، كانت " الطائرة" وأول ذاكرتي كانت ترحيل أهالي بالطائرة من بيروت كـ" رعايا" أجانب" (حسين، 2017، صفحة 34)، فمرجعية أيقونات الآخر هي الأنا؛ الطائرة حولتني إلى لاجئ، الطائرة تقصف بيتي وتهدمه، الطائرة والإسرائيلي سيان.

كل الفضاءات التي أوردها فيها من الوحشة واللاإنسانية وهي تصنع فضاء متميزا للضحية في تاريخها وحاضرها " عندما جاءت السلطة الفلسطينية، وتسلمت سجن رام الله من قوات الاحتلال الإسرائيلي، مثلا فتحته للزوار العاديين، ورأيت "فن التصميم المعماري" عاريا، هناك زنزانة لم أصلها، حتى في الظهيرة، إلا عبر نفق مظلم يقود إلى كهف...وبعد آخر درجة بركة ماء مستطيلة، وعلى يسار الدرابزين مباشرة، بركة أخرى، وفي البركتين ماء يبلغ علوه مترا على الأقل، ماء آسن ضارب إلى الخضرة، على سطحه قش وحشرات ووعد بعذاب سرمدي هنا في الماء، كانوا " ينقعون " السجين " في "عزلة انفرادية " (حسين، 2017، صفحة 52)، فهذا الفضاء/السجن جرد الفن من كل جمالية إنسانية حتى وهو فارغ، سكنته روح الجلاد بكل فزعها، لا الاعتراف أو الشهادة قادران على أنسنة هذا التوحش يوما ما، بل سيظل هذا المعمار أيقونة السقوط الإنساني.

الخاتمة:

جسدت سيرة "سأكون بين اللون" تجليا حقيقيا لتيمة الاعتراف في الوطن العربي، لشخصية الكاتب وطبيعته المتحررة من كل القيود الاجتماعية المشرقية، ناهيك عن الفضاء الفلسطيني/الإسرائيلي الذي كتبت فيه، وعلى تخومه وحدوده الفاصلة بين الاعتراف والنكران، والحرية والجدران، والمقاومة والإرهاب؛ ذاكرة الأرض المقدسة التي اجتمع فيها الديني والوثني والإيديولوجي في تناغم وتسامح وصراع، ولاتزال السيرة وفضاؤها موضوعا خصبا لتيمة الاعتراف، وسؤال الذاكرة والتاريخ والإنسان، "هويتي تأتي من تاريخي... ولكنهم شلحوني تاريخي..." (حسين، 2017، صفحة 89).

المراجع:

1- Axel Honneth .(1996). The struggle for recognition . Translated by : Joel Anderson، Cambridge, Massachusetts ، Great Britain: The MIT Press.

2- البرغوثي حسين. (2017). *سأكون بين اللوز*. عمّان-الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع.

3- الزواوي بغورة. (2012). *الاعتراف، من أجل مفهوم جديد للعدل، دراسة في*

الفلسفة الاجتماعية. بيروت-لبنان: دار الطليعة.

4- بول ريكور. (2009). *الذاكرة، التاريخ، النسيان*. (الإصدار الطبعة الأولى). (جورج زيناتي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.

5- فرانسوا دوس. (2014). مفاتيح معاصرة في فهم سؤال التاريخ والذاكرة ودور الاعتراف في ترتيب علاقة الذات بالآخر. *يتفكرون*.

6- Mattias Iser. (Thu 25 Apr, 2019). The Stanford Encyclopedia of Philosophy . (Edward N. Zalt ، المحرر) تم الاسترداد من https://plato.stanford.edu/:<https://plato.stanford.edu/archives/sum2019/entries/recognition

7- أندري لالاند. (2001). *موسوعة لالاند الفلسفية* (الإصدار ط2). (خليل أحمد خليل، المترجمون) باريس، فرنسا: منشورات عويدات.